ثورة السلطان سي زغدود في جبل إيدوغ
1841- 1843

أ. علي خنوف

مقدمة:

من الثورات الشعبية المجهولة تماما ثورة السلطان سي رغـــدود الـــتي دامت أكثر من سنتين، من أواخر سنة 1840-1843، قد انـــدلعت في منطقـــة جبل إيدوغ غرب مدينة عنابة، لتمتد إلى مدينة جيجل حيث انتشرت بســـرعة في الشمال القسنطيني كله. وحسب اجتهادي المتواضع فإن هذه الثورة الشعبية الهامة التي قادها سي زغدود مازالت في بطون الكتب الفرنسية المعاصرة لها.

لقد سبق لي الإشارة في المقدمة إلى أهمية ثورة السلطان سي زغدود في جبل إيدوغ[1]، ورغم ذلك بقيت مجهولة عكس المقاومات الشعبية الأخرى التي أدرج الكثير منها في المناهج المدرسية، وإن كانت أقل منها أهمية، وقد بقيـــت تلك الثورة حسب المعلومات المتوفرة لدّي في بطون الكتب الفرنسية المعاصـــرة لها مثل كتب شارل فيرو[2] وغيره. وأغلب هؤلاء الكتّاب الفرنسيين من ضباط جيش الاحتلال في فترة 1830-1850، ولهذا فإن المادة التاريخية التي ســـأعتمد عليها في هذا البحث كلها منقولة من كتاب تاريخ مدينة سكيكدة لشارل فيرو لأن إمكانياتي الخاصة لا تسمح لي بالإطلاع على دور الأرشيف الفرنسي الـــتي تحتوي على وثائق هامة مثل أرشيف وزارة الحرب بقصـــر فانســـان بـــاريس وأرشيف ماوراء البحر بجامعة إيكس بروفانس، والمصادر الوطنية لهذه الثـــورة منعدمة حسب اجتهادي، [3] وحتى الأشعار الشعبية التي عادة ما تخلد أبطـــال تلك الثورات اندثرت إن وجدت، وإذا بقي منها شيئ إلى اليوم فإنني لم أستطع الحصول عليه. وقد سألت البعض من معارفي الذين تعود أصـــولهم إلى منطقـــة إيدوغ عن أية معلومات متوارثة حول ثورة سي زغدود لكنهم حسب قولهم،

لم يسمعوا أي شيء عنها من الكبار الذين سبقوهم. و لم تبق لنا سوى المعلومات الفرنسية غير المحايدة لأن طريقة كتابة الفرنسيين للأحداث التاريخية معروفة، وعلى الأخص تلك التي شاركوا في صناعتها بقمعهم الوحشي لتلك الثورات، فمقاومة الاحتلال والدفاع عن الوطن يعتبرونها عصبية دينية وقبلية. وينعتون أصحابها بقطاع الطرق، هذا هو أسلوب المصادر الفرنسية في تناولها للثورات الشعبية خلال القرن التاسع عشر، لم نجد مع الأسف أي سند مكتوب ماعدا تلك الادعاءات. لذلك بقي لنا أن نأخذ تلك المعلومات ونفسرها حسب وجهة نظرنا، وربما هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الكثير من المهتمين بتاريخ الاحتلال الفرنسي يمتنعون عن الخوض في الكثير من الثورات الشعبية. وحتى الدكتور يحي بوعزيز صاحب الأبحاث في ثورات القرن التاسع عشر الذي تعرض للعشرات منها، حتى تلك التي دامت شهرا واحدا فقط، لم أجد في كتبه التي استطعت الاطلاع عليها أية إشارة ولو بسيطة، لثورة سي زغدود المغمورة، وأجهل مع الأسف الأبحاث التاريخية المحلية التي تقوم بها معاهد التاريخ لجامعات الشرق الجزائري، وهل تناول بحث من أبحاثها هذه الثورة أم لا؟

لقد اندلعت الثورات الشعبية في كل مكان بعد سقوط المقاومة الرسمية الممثلة في حكومة الداي حسين يوم 5 جويلية 1830م ولكن هيمنة كفاح الأمير عبد القادر في الغرب وأحمد باي في الشرق قلل الاهتمام بالثورات الشعبية المحلية التي اندلعت في فترة كفاحهما، رغم أننا لا نجد في المصادر الفرنسية أو سواها أي دليل مادي ملموس يثبت أية علاقة للكثير من تلك الثورات الشعبية مع كفاح الرجلين.

الوضع العسكري العام لفترة 1840–1843م.

منطقة الغرب الجزائري: استؤنفت المعارك بين الأمير عبد القادر والفرنسيين سنة 1839 بعد ما خرقت معاهدة التافنة [4] وتكبّد الغزاة خسائر فادحة وعلى الأخص في سنتي 1839و 1840 في عدة مناطق وظهرت في فرنسا معارضة قوية ضد حرب الجزائر وطلبت من الحكومة الكف عن التوسع والتوغل داخل الجزائر والاكتفاء بالمدن الساحلية، وحتى أن البعض منها طالب بالانسحاب نهائيا من الجزائر. لكن رئيس الوزراء حينئذاك السيد تيير[5] وقف بحزم ضد هذه المعارضة وأعلن تصميم حكومته على الاحتفاظ بالجزائر وأيده في ذلك وزير الدفاع المارشال سولت[6] وطالب هذا الأخير بالقيام بعمليات عسكرية حاسمة. ولتنفيذ هذا الاتجاه عين سولت الجنرال بيجو[7] قائدا عاما للجيش الفرنسي بالجزائر في شهر فيفري 1841م، وقد التحق بالجزائر بعد التعيين مباشرة، ومعه أكثر من مائة ألف جندي، مع إعطائه الصلاحيات الواسعة لتنفيذ السياسة الجديدة. وفعلا، بدأ تطبيقها، و ذلك بالهجوم على التجمعات السكانية الموالية للأمير عبد القادر لنهبها وحرق منازلها واتلاف مزروعاتها ومصادرة حيواناتها وبث الفتن بين أعيانها، وشيوخها ليبتعدوا عن مناصرة الأمير واضطرارهم للوقوف ضده وبالتالي يقوم هو بمعاقبتهم. والكتب التاريخية مملوءة بهذه المآسي التي تضع الأعراش بين ناريين. وكان بيجو يعطى لضباطه وجنوده التعليمات التالية: ليست مهمتكم أن تجروا وراء العرب في الجبال والصحاري فهذا غير مجد فمهمتكم أن تمنعوهم من البذر والحصد والرعي، وأحرقوا القرى، و أتلفوا المحاصيل، اجمعوا المواشي. وفعلا أثرت هذه الأساليب البعيدة عن اخلاقيات الحروب على الأعراش التي كانت تساند الأمير في كفاحه ضد جيش الاحتلال

وانقلب ميزان القوة لـــــصالح بيجو فشدد هجماته وصار يتوغل في الداخل فهاجم تاقدمت [8] عاصمة الأمير عبد القادر سنة 1841 ثم احتل مدينة معسكر، وفي سنة 1842 احتل تلمسان وشرشال والمدية وملیانة، وفي سنة 1843 استولى على الزمالة عاصمة الأمير المتنقلة.

منطقة الشرق الجزائري:

بعد سقوط قسنطينة في يد جيش الاحتلال الفرنسي ســـنة 1837 فـــر الحاج أحمد باي[9] قسنطينة نحو الجنوب واستقر في أول الأمر في منطقة بسكرة ويذكر أحمد باي في مذاكرته [10] بأن خاله بوعزيز بن قانة[11] هـــو الـــذي شجعه على الالتجاء إلى بسكرة، وفي نيته محـــاربة توسعات الأمير عبد القـــادر لا محاربة الفرنسيين، وفعلا فقد بدأ الصراع بين الطرفين على النفـــوذ فهـــاجم محمد بن البركاني، خليفة الأمير عبد القادر على المدية، مدينة بســـكرة ســـنة 1838 فانسحب منها أحمد باي والتجأ إلى النمامشة، وهناك ضايقه الفرنسيون فانسحب منها كذلك وذهب إلى نواحي توقرت. وفي سنة 1841م استســـلم خاله بن قانة لجيش الاحتلال الفرنسي، وأول شيء قام بـــه بعـــد استســـلامه مهاجمة خليفة الأمير عبد القادر في نواحي وادي ميزاب.

والحقيقة التاريخية المرة هي: إن هذه الفترة 1838 1843، التي التجأ في بدايتها أحمد باي إلى منطقة بسكرة شهدت حروبا وصراعات علـــى النفـــوذ والسلطة بين العائلات التقليدية التي كانت تتوارثها في العهد العثمـــاني فلعبـــوا على حبال الأمير عبد القادر وأحمد باي والفرنسيين ولـــذلك فالمعـــارك الـــتي خاضتها تلك العائلات فيما بينها مثل عائلة بوعزيز بن قانة وعائلة فرحات بن السعيد أكثر من المعارك التي خاضتها ضد الفرنسيين.

هذه خلاصة الأوضاع العسكرية لكفاح الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي في الغرب والوسط والجنوب الشرقي القسنطيني خلال الفترة السالفة الذكر. فهي على العموم غير مريحة بالنسبة للأمير والحاج أحمد، وبقيت أرياف الشريط الساحلي الممتد من الحدود التونسية إلى مستغانم غير مهتم بها كثيرا رغم موقعها الجبلي الهام لحرب العصابات وروح المقاومة العالية لسكانها.

– الشريط الساحلي القسنطيني ما بين 1830-1843:

لقد بدأ الاستعمار الفرنسي باحتلال مدن الساحل القسنطيني: مدينة عنابة سنة 1832، بجاية سنة 1833 ، ومنطقة سكيكدة سنة 1838 وجيجل سنة 1839. كما شرع في بناء مدينة سكيكدة (فليب فيل)[12] بعد احتلال المنطقة مباشرة ولضمان الاتصال بينها وبين قسنطينة شيد على طول الطريق القلاع العسكرية التي تحولت فيما بعد إلى مستعمرات وهي ديدوش مراد (بيزو) و زيغود يوسف (السمندو) ، والحروش وفج المديس الذي يبعد عن مدينة سكيكدة بحوالي 13 كيلومتر. وبمجرد معرفة النوايا الحقيقية لجيش الاحتلال وهي الاستطيان واغتصاب الأراضي الخصبة بدأت المقاومات الشعبية في نواحي عنابة وسكيكدة وجيجل وبجاية، وكثرت الهجومات على المدن الساحلية المحتلة كل ليلة وأهم تلك الثورات الثورة المعروفة باسم صاحبها سي زغدود.

من هو السلطان سي زغدود:

إن المصدرين الفرنسيين اللذين اعتمدت عليهما في هذا البحث وهي شارل فيرو، وبليسي لا يذكران شيئا على ماضيه ولا على سنة ازدياده ولا نسبه الأسر ولا تكوينه الأولي ولا نشاطه السياسي أو الإداري، وكل ما أفادتنا به تلك المصادر هو أن سي زغدود، سنة 1840،كان شيخا على عرش بني

محمد الموزع في المنطقة الساحلية رأس الحديد غرب مدينة عنابة (منطقة الشطايبي) أما أسباب ثورته فالمصادر الفرنسية الوحيدة في هذا الميدان ترجعها إلى التعصب، ورفض المسيحيين وحضارتهم، والسذاجة والتخلف، ولكن الأسباب الحقيقية لثورة سي زغدود نعرفها من خلال شرحهم للأحداث التي أدت به إلى إعلان الجهاد ضد ذلك المحتل. فمن خلال ذلك الشرح نعرف أن سي زغدود كان قبل إعلان الجهاد يعترف بالأمر الواقع الذي أحدثه جيش الاحتلال وهو نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي لكن سي زغدود كان يجهل الأهداف الحقيقية للفرنسيين وهو الاستعمار الاستيطاني والاستيلاء على الأراضي الخصبة وعلى الثروات الغابية، والمعادن الباطنية، وطرد الجزائريين إلى الجبال والأحراش.

تعترف المصادر الفرنسية أن منطقة إيدوغ غرب مدينة عنابة كانت هادئة من سنة 1832إلى 1840م وأن القائد الذي تركه العثمانيون يحكم منطقة إيدوغ استمر في حكمه، وكان متحكما في شيوخها ومن بينهم سي زغدود، وقد كانوا يجمعون الضرائب، ويذهبون بها إلى القيادة العسكرية في أوقاتها المحددة، وقد زار سي زغدود عنابة قبل إعلانه الثورة بخمسة عشر يوما، كما يعترف الفرنسيون بأن السبب المباشر للثورة هو عزل القائد القديم المتحكم في الأوضاع المدعو سي كريمش، وتعيين أحد صنائع جيش الاحتلال الصبائحي بن بركوش على منطقة إيدوغ، فرفضت أعراش إيدوغ هذا التغيير و لم تعترف بقيادة بن بركوش، كما رفضت دفع الضرائب له، وفي الوقت نفسه بدأت تظهر طلائع المغامرين من المعمرين الأوائل من فرنسيين وإيطاليين ومالطيين لاستغلال قشرة أشجار البلوط الكثيرة بغابات المنطقة، ولتثبيت هذا الأمر الواقع

أمرت القيادة العسكرية الضابط ألوم(Alloume) بتنظيم حملة عسكرية لتأديب الأعراش التي رفضت القائد الجديد الصبائحي بن بركوش [13] فخرجت القافلة يوم 17 جوان 1841 من مدينة عنابة تضم خمسة وعشرين جنديا فرنسيا ومجموعة كبيرة من صبايحية القائد الجديد بن بركوش واتجهت نحو منطقة إيدوغ وجمعت الضرائب من أعراش وشاوية، والتريعات؛ وصنهاجة[14] وفي يوم 13 من الشهر نفسه وصلت إلى عرش بني محمد [15] فنصبت خيامها، وطلبت من سي زغدود ضرائب عرشه فمطالهم إلى ما بعد الظهر بحجة إتمام جمعها لكن الضابط الفرنسي أحس بشيء غير عاد فطلب من القائد بن بركوش الاستعداد للانسحاب والعودة إلى مدينة عنابة وعند ما بدأ في الانسحاب أطلق عليهم الرصاص سي زعدود وقتل الضابط الفرنسي ألوم وفي الوقت نفسه خرجت مجموعة كبيرة من الأحراش القريبة وأطلقت النار على الفرقة العسكرية المرافقة له فقتلوا بعضها والبعض الآخر استطاع الفرار ومن حسن حظتهم فقد وجدوا أمامهم مجموعة من الخيل ترعى فركبوها، وفروا بها إلى مدينة عنابة ومنهم القائد بن بركوش. وبذلك بدأت المرحلة الأولى من ثورة سي زغدود .

انتشار الثورة في منطقة عنابة:

في يوم 21 جوان 1841 وصل خبر مقتل الضابط الفرنسي ألوم إلى قائد منطقة عنابة الجنرال لافونتين (la Fontaine) فجهز بسرعة حملة عسكرية من حوالي خمس مائة جندي وقادها بنفسه واتجه بها نحو عرش بني محمد لينتقم من سي زغدود الذي غنم من هذه العملية عدة خيم عسكرية، وحوالي 30 رأس من الخيول والبغال وعدة أسلحة متطورة، وحوالي خمسة آلاف فرنك بالإضافة إلى تجهيزات أخرى. وكان سي زغدود واعيا لعواقب ما أقدم عليه،

فاستعد لذلك وكان بالمرصاد لقافلة الجنرال لافونتين فتركه حتى توغل في شعاب المنطقة وهاجمه من كل جهة، واندلعت معركة كبيرة بينهما وانتهت بانتصار سي زغدود، وموت العديد من الجنود الفرنسيين وعودة ما تبقى منهم خائبين إلى مدينة عنابة. وبهذا الانتصار أصبح سي زغدود سيد المنطقة الساحلية الممتدة من عنابة إلى سكيكدة وحصر الفرنسيين في مدينة عنابة وأصبح الإقليم الريفي خارج عن طاعتهم وقد هاجم مدينة عنابة عدة مرات في شهري أوت وسبتمبر من السنة نفسها، ونتيجة لفشل الجنرال لافونتين في التغلب على سي زغدود أبعد من قيادة عنابة وعين مكانه في شهر أكتوبر 1841 الجنرال راندو. بعد استقراره نظم حملة عسكرية ضخمة في شهر نوفمبر من السنة نفسها تضم أكثر من ألف جندي واتجه بها نحو منطقة إيدوغ وبدأ يطبق الاستراتيجية الجديدة التي جاء بها الجنرال بيجو من فرنسا وهي القتل الجماعي وإحراق القرى وإتلاف البذر والحصد ومصادرة الحيوانات. وفعلا أعاث الجنرال راندو في منطقة إيدوغ فسادا فحرق جميع القرى التي وجدها في طريقه في أعراش النزيعات وصنهاجة وبنى محمد وغيرهم كما قتل أربعة إخوة لسي زغدود وعشرين من أقاربه والكثير من سكان الأعراش. ورغم بقاء القوات الفرنسية في المنطقة عدة أيام فإن سي زغدود والكثير من مجاهديه استطاعوا الإفلات من هذه المحلة التي قادها الجنرال راندو فخرجوا سالمين من منطقة عنابة واتجهوا غربا نحو ناحية سكيكدة.

سي زغدود في منطقة سكيكدة:

لقد انتشرت بسرعة بطولة سي زغدود، وانتصاراته على الجنرال لافونتين في منطقة عنابة بين أعراش الشمال القسنطيني كله من عنابة إلى مصب

الوادي الكبير شرق مدينة جيجل وكثر مؤيدوه وسنعرف ذلك حينما نتعرض لاحقا لنشاطه الثوري في منطقة سكيكدة.

لقد اضطر سي رغدود لمغادرة منطقة عنابة بعد ما خربها الجنرال راندو، وفي شهر ديسمبر 1841 حط رحاله في منطقة المثلث سكيكدة، القل الحروش في وسط عرش بني إسحاق القبلية [16] . ومن هناك استأنف نشاطه الثوري فاستجابت له أعراش المنطقة كلها الزرامنة بنى توفت أولاد عطية بنى فرقان بنى حمدوش وشاوي أولاد الحاج بني ولبان وبني صالح بني مهنة والعلمة معسلة[17]. كما انضمت إليه أعراش المنطقة الشرقية الواقعة ما بين الحروش وقالمة مثل أولاد جابرو أولاد عطية الشرقية و زردارة[18] . ونظرا لهذا التأييد الواسع أعلن نفسه سلطانا وكتب الرسائل إلىجميع أعراش المنطقة باسم السلطان سي زغدود وقد عين خلفاء على كل عرش فقد عين مثلا محمد ابن عبد الرحمن خليفته على عرش زردارة الكبير، وقد قدر الفرنسيون مجاهديه ما بين خمسة وسبعة آلف مجاهد أثناء هجومه على المركزين الفرنسيين فج الديس بنصب الكمائن ليلا ونهارا والحروش. وقد جعل مركز نشاطه الرئيسي سوق الثلاثاء[19] بوسط عرش بني إسحاق القبيلة غرب مدينة سكيكدة. ومن هناك انطلقت نشاطاته الثورية بنصب على الكمائن للقوافل العسكرية الفرنسية أثناء تنقلاتها ما بين قسنطينة وسكيكدة، وقطع الطريق على المسافرين ومصادرة التموين واختطاف المعمرين والمتعاونين معهم من الجزائريين. وقد كبد الفرنسيين خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، كما قطع عليهم الطريق بين سكيكدة وقسنطينة وأصبحت المراكز الفرنسية كالحروش وفج الديس مهددة بالسقوط في يدي السلطان سي زغدود، فعم الذعر المعمرين الأوائل اللذين

وزع عليهم أكثر من عشرة ألاف هكتار من اخصب الأراضي الواقعة على ضفاف وادي الزرامنة وضفاف وادي الصفصاف، والتحقوا بالمراكز العسكرية خوفا من ضربات السلطان سي زغدود.

معركة سوق الثلاثاء ببني اسحاق القبلية:

ونتجية لما يقوم به السلطان سي زغدود من نشاطات ثورية واسعة وسيطرته التامة على أرياف منطقة سكيكدة كلها، بما فيهم الكثير من عشائر عرش بني مهنة، وكذلك عشائر من عرش العلمة معسلة، لأن هذين العرشين يعدان من الخاضعين لجيش الاحتلال. فقد أصبح الوضع العام خطيرا بالنسبة للوجود الفرنسي في الشمال القسنطيني كله، وأصبح سي زغدود السلطان الفعلي له، ولاختبار قوته نظم الكولونيل بريس(Brice) قائد منطقة سكيكدة، حملة عسكرية يوم 4 ماي 1842 تضم أكثر من خمس مائة جندي واتجه بها نحو سوق الثلاثاء جنوب غرب فج الديس (مابين الحدائق وتامالوست) ويدَّعي الفرنسيون بأن هذه الحملة كانت للاختبار وإظهار القوة فقط، فقد وصلت بعد ماسارت أكثر من عشر ساعات إلى سوق الثلاثاء، فتفرق أنصار زغدود في كل الاتجاهات و احتلت المحلة على اثرها مرتفعا مكشوفا.

و لم تقم بأي عمل حربي، كما أنها لم تقم بأي عقاب ضد السكان. فبقيت المحلة حوالي ثلاث ساعات، و لم يطلق عليها أية رصاصة ولكن أثناء عودتها تعرضت هذه الأخيرة للهجوم في الوسط وفي المؤخرة، واندلعت معركة شرسة استعمل فيها السلاح الأبيض واستمرت أكثر من ست ساعات من السادسة مساء إلى منتصف الليل وقد اعترف الفرنسيون بموت خمسة عشر جنديا، وجرح 67 آخرين وقد تركوا في المعركة الكثير من المعدات الحربية،

والتموين وأسر ثلاثة جنود أثناء المعركة. وقد استغل سي زغدود هذا الانتصار وأرسل دعاته إلى كل الجهات محملين بالأسلحة التي غنموها كما أرسل معهم الجنود الفرنسيين الذين أسرهم أثناء المعركة ليشاهدهم الخاضعون لجيش الاحتلال.

الهجوم على الحروش وفج الديس:

بعد انتصار السلطان زغدود على الكولونيل بريس صار يطمح لاسترجاع عاصمة الإقليم قسنطينة.وفعلا فقد عزل منطقة سكيكدة عن مدينة قسنطينة، وأصبح ممر الكنتور مراقب ليلا نهارا من طرف مجاهديه. ولإظهار قوته قام يوم 20 ماي 1842م بهجومين كبيرين في وقت واحد.

الأول: على مركز فج الديس والثاني على الحروش وقد حاصر المركزين طيلة صبيحة 20 ماي بأكثر من خمسة آلاف مجاهد، وقد قاد بنفسه الهجوم على الحروش لكن المدفعية الفرنسية الثقلية والحصانة القوية للمركزين وبساطة أسلحة مجاهدي سي زغدود جعل الرصاص الذي يطلقونه، لا يخترق الأسوار، فهذه العوامل أفشلت الهجومين حيث خسر فيهما سي زغدود حسب المصادر الفرنسية، أكثر من مائة مجاهد، أما خسائر العدو فلا تتعدى عشرة جنود. ونظرا لهذا الفشل وعدم جدوى مهاجمة المراكز العسكرية الفرنسية غيّر سي زغدود الاستراتيجية، واتجه إلى حرب العصابات وقسم مجاهديه إلى فرق صغيرة تضرب، وتهرب، عاد لتشديد الخناق على تحركات الجيش و المعمرين وأصبح التنقل بين المراكز العسكرية لا يتم إلا بالقوافل الطويلة. ونظرا لهذا الوضع المقلق، عوض الكولونيل بريس، قائد منطقة سكيكدة، بالجنرال لوفاسور (Le Vasseur) وأعطيت له التعليمات بالقضاء على سي زغدود بأي ثمن كان،

ودعم بحوالي خمسة آلاف جندي فرنسي ليطبق سياسة بيجو الجديـــدة، الأرض المحروقة. وقد اختار الوقت المناسب، وهو بداية الحصد، والدرس لخروجه. فقد خرج من سكيكدة، في نهاية شهر جوان 1842، على رأس محلة تضم أكثر من ألفي جندي وقصد بها أعراش غرب الطريق الرابط بين سمندو وسكيكدة، فبدأ بحرق القرى والمزروعات وقتل الحيوانات أو جمعها، وقتل الرجال القادرين على حمل السلاح، وبدأ بالأعراش القريبة من سكيكدة مثل الزرامنة والتعابتة، وبـــني إسحاق القبلية، وأولاد الحاج وبني صالح وبني ولبان وغيرهم، وقد جمع حوالي 500 من الخيول والبغال وعشرة آلاف، رأس من البقر، بالإضافـــــة إلى عدد لا يحصى من الماشية، وقد تجنب سي زغدود الاشتباك مع هذه المحلة لأنها تفوقه عدة، لهذا انسحب إلى الأعراش الواقعة شرق الطريق وبقي يتنقل بـــين زردازة، وأولاد عطية الشرقية.

أما القوات الفرنسية فقد عادت إلى مدينة ســـكيكدة دون أن تلتقـــي بمجاهدي سي زغدود ولكنها علمت بتنقلاته غرب عزابة وفي عـــرش زردازة الكبير، لهذا جهزت يوم 15 جويلية محلة بقيادة الجنرال لوفاسور، واتجهت نحـــو زردازة فأحرقت كل المزروعات والقرى التي وجدتها في طريقها، ابتـــداء مـــن غرب عزابة وانتهاء بالحدرات المطلة على الحروش مـــن النـــاحتين الشـــرقية والجنوبية. وقد تفادى مجاهدو سي زغدود التعرض لهذه القوات، وعدم ظهورها أثناء الحملتين الأولى والثانية جعلت قوات الاحتلال تعتقد بأن قمعها الوحشي للسكان وتطبيق سياسة الأرض المحروقة قد أتت ثمارهـــا، كمـــا أن اختفـــاء نشاطات سي زغدود الثورية طلية الشهور الثلاثة: أوت، سبتمبر، أكتوبر، قـــد دعمت هذا الاعتقاد. والحقيقة أن هذه الهدنة غير المعلنة كان الهدف منها إعطاء

الفرصة للفلاحين للحصد والدرس والتخزين لما تبقى من المزوعات التي كانت بعيدة عن أعين الفرنسيين.

وابتداء من شهر نوفمبر 1842 استأنف سي زغدود أعماله الثورية بحرق الغابات القريبة من مركز سكيكدة، وبنصب الكمائن ليلا ونهارا وأصبح التنقل بين قسنطينة وسكيكدة من المستحيلات وقد كبد الفرنسيين بهذه الأعمال خسائر فادحة، وأفسد عليهم التنظيمات التي نظموا بها الأعراش القريبة من سكيكدة مثل بنى مهنة السلفية إذ وضعوهم في الخط الأمامي لكن أغلب العشائر انقلبت ضدهم، وعم العصيان من جديد كل المنطقة، لقد أصبحت حملات الجنرال لافاسور في ربيع وصيف 1842 غير فعالة، ومن ثمَّ قرروا في أعلى مستوى القضاء على ثورة سي زغدود بأي ثمن كان.

نهاية ثورة سي زغدود:

وفي الأخير قرر القائد الأعلى لقوات الاحتلال لعمالة قسنطينة الجنرال براقي ديلي (Baraquay Dhilieh) القضاء على ثورة السلطان زغدود فخطط لخروج أربع محلات كبرى في وقت واحد تضم أكثر من عشرة آلاف جندي فرنسي وأكثر من ألفين من القوميه الجزائريين من قسنطينة وسكيكدة وعنابة وقالمة وتلتقي كلها في مربع فليفلة القل شمالا وعزابة تاما لوست جنوبا. فخرجت القافلات يوم 13 أفريل 1843 في وقت واحد، وأكبر القافلات الأربع هي التي يقودها القائد الأعلى الجنرال براقي ديلى. فخرجت من قسنطينة في الوقت المحدد، وكانت تضم حوالي خمسة ألف جندي من مختلف الأسلحة وحوالي ألف قومي يقودهم الخليفة بن با أحمد وفي راس الحامة انقسمت القافلة إلى قافلتين واحدة اتجهت شمالا غرب الطريق الرابط بين قسنطينة وسكيكدة

مخترقة أعراش عرب الحامة وبنى حمدان والعلمة معسلة وبنى لبان وغيرهم والثانية اتجهت شرق الطريق السالف الذكر قسنطينة سكيكدة مخترقة أعراش أولاد دراج وأولاد جبار وأولاد عطية الشرقية وزردارة وغيرهم. كما خرجت في الوقت نفسه محلة من سكيكدة بقيادة الكولونيل بارتليمي (Barthélemy) تضُم حوالي ثلاثة ألف جندي وأكثر من مائة قومي تحت إشراف القائد بوروبي، وفي الوقت نفسه خرجت محلة من مدينة عنابة بقيادة الكولونيل سنيت تضم حوالي ألفين جندي مخترقة أعراش جبل إيدوغ كما خرجت محلة أخرى من قالمة بقيادة الكابتان تورفيل (Tourville) مخترقة سلسلة جبال طاية متجهة نحو منطقة سكيكدة. وحسب الاستنتاجات التي توصلت إليها فإن هذه المحلات الأربع تحركت بناء على معلومات مؤكدة بتمركز سي زغدود ومجاهديه الملازمين له في مربع القرفليفلة شمالا مجاز الدشيش عزابة جنوبا لأن المصادر الفرنسية التي استطعت الاطلاع عليها لم تحدد المنطقة بالضبط التي عثر فيها على سي زغدود. فمن خلال اتجاه هذه المحلات استخلصت المنطقة التي كان بها سي زغدود لأن قائد سكيكدة بدأ الاتجاه نحو الغرب وعندما تأكد من عدم خروج سي زغدود من المنطقة المحدودة غَيّر الاتجاه نحو الشرق ابتداء من تامالويست، مما يعني أن سي زغدود صار محاصرا من جميع الجهات. وبعد عشرين يوما من الحصار والقمع والقتل والحرق وإتلاف الأرزاق ومصادرة الحيوانات، التي شملت كل المنطقة الممتدة من القل إلى عنابة شمالا ومن قسنطينة إلى قالمة جنوبا، خرج يوم 3 مارس 1843 ، الكاتب الخاص لسي زغدود ليخبر قائد منطقة سكيكدة بمخبأ رئيسه السلطان سي زغدود. وفي الحين بعث معه فرقة عسكرية من الرماة بقيادة الكابتان مونتكناك (Montagnac) ومجموعة من القومية

تحت إشراف القائد بوروبي واتجه الجميع نحو مخبأ السلطان سي زغدود فخـــرج هاربا عند ما شاهد الطابور العسكري متوجها نحوه، وكاد أن يفلت منهم لكن الرماة أطلقوا عليه النار فقتلوه وأخذوا جثته وعرضوها في سكيكدة وقســـنطينة والحروش. وقد احتفل جيش الاحتلال والمعمرون بهذا الانتصـــار، وظنـــوا أن المنطقة خضعت لهم وأن ثرواتها الغابية وأراضيها الخصبة أصبحت في متنـــاول المعمرين.

لم يعطنا شارل فيرو صاحب كتاب تاريخ مدينة سكيكدة ولابلـــيس صاحب الحوليات عدد الضحايا من الجزائريين ولا حجم الأرزاق التي أتلفتـــها هذا الحملات العسكرية الضخمة بل اكتفوا بذكر ما خسروه في كل هجوم أو كمين قام به المجاهد والسلطان سي زغدود، وقد جمعتها لأن المصادر الســـالفة الذكر ذكرتها متفرقة، فكانت الخسائر أكثر من ستة مائة مابين قتيل وجريح من الفرنسيين منذ بداية الثورة إلى نهايتها، أما النتائج العامة لنهاية ثورة الســـلطان سي زغدود التي ركزت عليها المصادر الفرنسية السالفة الذكر فهـــي عـــودة الهدوء إلى جميع أعراش المنطقة وخضوعهم التام لجيش الاحتلال الذي قام بتعيين قياد وشيوخ جدد على الأعراش، هذا الهدوء لم يدم طويلا لأنه ظهر من جديد في المنطقة ثوار آخرون و لم يخيم الهدوء التام إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

الهوامش

1-جبل إيدوغ: جبل يشرف على مدينة عنابة من الناحية الغربية، وقد شيد الفرنسيون على قمته قرية سياحية كانت تسمى بيجو وبعد الاستقلال أطلق عليها اسم الشهيد سرابدي.

2- شارل فير من الضباط المترجمين في القيادة العسكرية لعمالة قسنطينة ما بين سنتين 1842-1860 وله اهتمامات كثيرة بالتاريخ الفرنسي بالجزائر واختص في تاريخ المدن وله كتب عديدة في هذا الميدان ومنها تواريخ مدن سكيكدة بجاية جيجل قسنطينة وبسكرة وغيرهم.

3- انعدام المصادرة لقد أطلعت أخيرا أثناء مطالعتي لمجلة المصادر في عددها الصادر في شهر مارس 2002 على إشاره هامشية لهذه الثورة في بحث للدكتور عميرواي أحميدة من جامعة قسنطينة تحت عنوان السياسة الإدارية الفرنسية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي وقد وردت تلك الإشارة هكذا: لمعرفة شيئ عن ثورة سي زغدود في شمال قسنطينة يراجع ما في كتابنا محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ومع الأسف لم تسمح الظروف للاطلاع على هذا الكتاب.

4- معاهدة التافنة: وادي معروف غرب مدينة وهران ينبع فرعه الأكبر من جنوب شرق المغرب، ويصب في البحر قرب مدينة بنى صاف من الناحية الغربية، وقد سميت تلك المعاهدة باسمه لأنها عقدت على ضفافه يوم 30 ماي 1837 بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو وتحتوي على 15 مادة وهي المعاهدة الوحيدة المعترف بها رسميا من الحكومة الفرنسية.

5- تيير: رئيس وزراء لفرنسا مابين سنتي 1838-1840.

6- سولت: مارشال فرنسي عمل رئيس وزراء ما بين سنتي 1840-1842.

7- بيجو: ارتقى الى رتبة جنرال بعد انتصاره على الأمير عبد القادر في معركة وادي المسكاك سنة 1837 وقد رجع بعدها إلىفرنسا بعد عقده لمعاهدة التافنة السالقة الذكر.

وفي سنة 1841 أعيد إلى الجزائر كحاكم عام خلفا للجنرال فالي وقد استمر في المنصب إلى سنة 1847.

8- تاقدمت: قلعة قديمة تبعد بنحو تسعة كيلومترات عن مدينة تيارت غربا، ويقال إنه أسسها الإمام عبد الرحمن بن رستم سنة 144هـ. اتخذها الأمير عبد القادر مركزا للذخائر وصناعة السلاح وضرب بها سكته وقد خربها الجنرال بيجو

9- أحمد باي: آخر بايات مدينة قسنطينة إذ كان حاكمها ما بين سنتين 1826-1937.

10- للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: مذكرات أحمد باي، ترجمة وتحقيق الأستاذ محمد العربي طبع ونشر الشركة الوطنية للطبع والتوزيع الجزائر سنة 1973.

11- عائلة بن قانة مشهورة أيام العهد العثماني في نواحي بسكرة وكان عميدها في بداية الاحتلال الفرنسي مشهور بوعزيز بن قانة.

12- لوي فليب: ملك فرنسا مابين 1830-1848

13-الصبايحية: فرقة عسكرية من الجزائريين بقيادة ضباط فرنسيين وكلمة الصبايحية تعود إلى العهد العثماني وهي فرقة فرسان الكراغلة التي كان يقودها باش شاوش الذي يشبه قائد الأركان وقد حرفت في العهد الفرنسي إلى كلمة سبايس

14-أعراش وشاوي الخ: هي الأعراش التي تقع في المنطقة الساحليةغرب مدينة عنابة في المربع الممتدد ما بين سرايدي واشطابي شمالا وبني برحال وبن عزوز جنوبا.

15- عرش بني محمد: يقع على شاطئ البحر في المنطقة الممتدة من شطابي شرقا إلى رأس الحديد غربا ويمتد جنوبا إلى قرب بلدية بن عزوز.

16- اعراش الزرامنة الخ، تقع كلها في المثلث سكيكدة مصب الوادي الكبير شرق مدينة جيجل وديدوش مراد.

17- أولاد جابر الخ: تقع في المثلث قالمة عزابة الحروش .

18- سوق الثلاثاء: لعلّ هذه السوق هي ما يعرف اليوم بالزيتونة التي تقع جنوب غرب القل وتبعد عنها بحوالي عشرة كيلو مترات.